الثورة الثقافية في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

العلوم الإسلامية تتناول الدين والدنيا :

لا يقتصر مفهوم العلم في الإسلام على الجانب الديني منه ، بل يشمل جانبه الدنيوي كذلك ، تشهد بذلك حقائق العقيدة الإسلامية وتاريخها المجيد ، ذلك أن الإسلام يتميز عن الرسالات السماوية السابقة بأنه دين ودولة ، فلا رهبانية فيه وهو دين العمل والكفاح الإيجابي في سبيل العيش الكريم ، حتى لقد رفع قيمة العمل على قيمة العبادة وحدها لأن العمل نفسه عبادة . والعمل مرتبط بواقع الإنسان ، وقد حث الإسلام على العمل الصالح في سبيل سعادة الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة ؛ وجاءت الآيات القرآنية في أكثر من موضع تشير إلى هذا المضمون وتؤكده .

ومن ثم كانت الدعوة العلمية في الإسلام تنصرف إلى الحث على تحصيل العلوم الدينية والدنيوية جميعا ، لأن الهدف من نشر العلم هو هداية الفرد وإصلاح المجتمع ، لما في ذلك من تحقيق لمصلحة العمران في العالم . وإذا تأملنا تلك الحكمة التي وردت في الأثر : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، وجدنا دلالة أخرى على هذا المعنى ، إذ لا يستقيم في المنطق أن يتكبد المسلم مشاق الرحلة إلى الصين والبعد عن مهبط الوحي في الجزيرة العربية ليلتمس التفقه في الدين على أيدي قوم لم تبلغهم دعوة الرسول ، وإنما القصد أن يحيط بما أوتيه أهل الصين من علوم ومعارف تصلح بها أمور الدنيا .

كما نجد مصداق ذلك في حث الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة على تعلم السريانية ، وهي لغة أجنبية لا يستزيد بها المسلم علما بدينه وإنما ينتفع بها في دنياه . وفي قوله ، عندما سئل عن النخل وتلقيحه ، ما معناه أن هذا من أمور الدنيا التي يرجع فيها إلى التجارب والعقل ، وأن الناس أعلم بأمور دنياهم .

ولقد نبغ كثير من المسلمين الأوائل في العلوم الدينية والدنيوية معا ، فكانوا

وأما جامع قرطبة فحسبنا أن ننقل عنه ما جاء فى الجزء الثانى من كتاب « مساجد ومعاهد » وهو :

« إن جامع قرطبة كان يعد أعظم جامعة غربية فى أوربا فى العصر الوسيط ، وقد قيل إن الراهب (جيربير) الذى أصبح فيما بعد (البابا سلفستر الثانى) أتم دراسته فى جامع قرطبة . ولا نشك فى أن كثيرين من نصارى الأندلس الذين كانوا يعيشون تحت ظل المسلمين قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا - أى تثقفوا بالثقافة العربية - إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، رغبة فى تقلد المناصب الكبرى فى الإدارة ودواوين الحكومة ، وقد نبغ بعضهم فى آداب اللغة العربية ، وظهر منهم الشعراء والكتاب » .

* * *

ولو انتقلنا إلى جنوب وادى النيل - السودان - لوجدنا أن المسجد هناك قد قام برسالة كبيرة فى مجالات الثقافة والتوجيه ، فقد عرف السودان - كما جاء بكتاب دور المساجد التاريخى - نظام « الخلاوى » وهى أمكنة يؤمها الطلاب لحفظ القرآن المجيد ، وتعلم أحكام التجويد ، فإذا انتهى الطالب من حفظ القرآن ، وتعلم أحكام ترتيله ، شرع يتلقى العلم والتصوف من بعض العلماء .

ثم جاء من عمل على أن تختص « الخلاوى » بتحفيظ القرآن وتعليم التجويد ، وأن تختص المساجد بتدريس العلوم الأخرى ، فصارت المساجد معاهد علمية يقوم بالتدريس فيها علماء أجلاء لم يكونوا من أبناء السودان فقط ، بل رحل إلى السودان علماء من أقطار شتى ، وجلسوا فى المساجد هناك يعلمون الناس ، ومن هؤلاء محيى الدين بن عربى ، والجنيد ، والحلاج ، وأبو الحسن الشاذلى ، ولما كان الكثير من هؤلاء من أعلام الصوفية فقد انتشر التصوف فى السودان انتشاراً كبيراً ؟

أحمد الشرباصى

بين ربيعة الرأى وأعرابى

تكلم ربيعة الرأى يوما بكلام فى العلم فأكثر ، فكأن العجب داخله ، فالتفت إلى أعرابى إلى جنبه فقال : ما تعدون البلاغة يا أعرابى ؟ قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب . قال : فما تعدون العى ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم ! فكأنما ألقمه حجراً .

فقهاء فى الشريعة وعلمـــاء فى الفلسفة والرياضيات ، ومنهم من كان يجمع بين التفقه فى الدين والعلم الراسخ فى الطب .

والإسلام دين حضارة ، فلا غرو أن يدعو إلى التعمق فى شتى العلوم والفنون وأن يفتح النوافذ ويفسح المجال للأخذ من كل علم بطرف .

ولقد أستندت الحضارة الإسلامية إلى دعائم من علوم الدين والدنيا معا ولا تفضيل لعالم على آخر بنوع ما يحصله من علم ، وإنما بإخلاصه فيه واستخدامه فى سبيل خير الناس ورخائهم ، ذلك أن العلم فى الإسلام سبيل لخدمة الدين والمجتمع معا ، فأما علوم الدين فهى تبين أحكامه للهداية إلى حقيقة العبادات وأما علـــوم الدنيا فللإرشاد إلى أصلح المعاملات .

الفتوح الإسلامية أحداث ثقافية كبرى

ولقد أثمرت تلك التعاليم الرائدة التى بثها الرسول فى نفوس المسلمين تمجيداً للعلم وتكريما للعلماء فيما أعقب العهد الأول للإسلام من عصور زاهرة ارتفعت فيها أعلام دولة فى أقاصى العالم وطبقت حضارته الآفاق .

فالواقع أن الفتوح الإسلامية لم تكن أحداثا سياسية أو حربية فحسب ، إذ تبلورت فى شكلها إلى أحداث ثقافية رائعة . وآية ذلك ما أعقب الفتح العربى لشبه جزيرة أيبريا « الأندلس » من نهضة علمية أهلت العقل البشرى لاكتشاف الكثير من المجاهل التى لم يطرقها من قبل ، ثم حفزت هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار وأفسحت له الطريق ليسير بأبحاثه واكتشافاته بما لم يتيسر للإنسان فى يوم ما ، يشهد بذلك ما أنتجته العبقرية الإسلاميه فى أسبانيا تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة الأموية فى أعوام قليلة إذا قيست بعمر التاريخ المديد .

ومن الثابت كذلك أن من العناصر الأساسية التى جعلت سرعة الفتوح الإسلامية أشبه ما تكون بالأساطير ، أن العرب كانوا يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارة الدول المغلوبة فانساب الفتح الإسلامى فى طريقه كالسيل الدافق فى أفريقيا وآسيا ، وحطم دولتين عظيمتين كان بيدهما زمام العالم ومصيره إذ ذاك ، ثم اتجه إلى أوربا فأمدها بحضارة إنسانية زاخرة ظل يحمل مشعلها فى جميع أرجاء العالم عشرة قرون من الزمان .

المبادىء والقيم العلمية والثقافية فى الإسلام

لم يكد يبزغ فجر الإسلام ، حتى بهرت

العالم إشراقته الفكرية ، فكانت الدعوة إلى التأمل فى خلق السموات والأرض أساس الدعوة إلى الإيمان بالله واعتناق شريعته السمحة وكان منهاج الإسلام فى نشر المعرفة بث التوعية بحقائق الحياة والعقيدة فى النفس البشرية بقصد تهذيب هذه النفس ورفعها من ظلمات الجهالة إلى آفاق الفكر المستنير ، حتى تصبح طاقة قوية قادرة على مشاركة مجتمعها فى معركة الإيمان والبعث والتقدم .

ومن أجل تحقيق هذا الغرض وهو إصلاح النفس والجماعة فى سبيل إصلاح العالم كوحدة واحدة متماسكة ، نهج الإسلام سبيل العمل الثورى فى نشر رسالته الفكرية حتى يتكافأ أسلوب العمل مع أهمية تلك الرسالة وخطرها .

وإذا كان المقصد الأسمى للعلم والثقافة فى الإسلام هو جعلهما سبيلا إلى هداية الفرد واتصاله بالله ، وإلى تقويم الأسرة البشرية جميعا وتحقيق آمالها فى العيش الحر الكريم ، فلا عجب أن تساير هذه الغاية الحميدة وسيلتها بين الناس ، فتحاط تلك الوسيلة بسياج من المثل العالية يحميها من التردى فى وهدة الإثم والانحراف .

وهكذا وضع الإسلام للنهضة العلمية والثقافية دليلا للعمل منبثقا من دعوته السماوية وغايته المثالية فى الدين والدنيا ، وأقام هذا الدليل على أسس ثابته ودعائم وطيدة حتى يرتفع البناء شامخا خالدا على مدار الأجيال والأحقاب .

وكان هذا المنهاج فى سداده وقوته مرشدا أمينا قادرا على الدلالة على أهدافه الصالحة ، باعثا على الإيمان بها ؛ ومن ثم أرسى الرسول الكريم مستلهما كتاب الله عز وجل أصلح المبادىء وأشرف القيم والتقاليد للنهوض بالجانب الثقافى من رسالته ، فأمر بمكارم الأخلاق فى طلب العلم ، ونهى عن دنايا الخلال وقبائح الفعال .

فالإسلام يحرم الرأى القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة ، ويضرب على أيدى الآخذين بتلك « الميكافيلية » الخادعة ، لأنه دين الحق والخير والفضيلة ، ومهما عظم الهدف ودعت الحاجة إلى العجلة فى بلوغه ، فلا سبيل إلى ذلك إلا بانتهاج الطريق القويم وإن كلف السائرين فيه ضروبا من المشقة والعناء ، بل إن القصور أو التأخير فى تحقيق الأهداف السامية لأهون فى الإسلام من أن يسعى إليها على مركب وعر يحط بشرف الإنسان ويزرى من شأنه ، فما قيمة العلم والثقافة بغير رصيد من نبل السجايا وسمو المناقب ؟ .

وإذا كانت رسالة البعث العلمى ترمى إلى تحرير العقل البشرى وتطهيره من رواسب الجهل وزيف الباطل وخداع الأوهام وتيسير

الطريق له للاهتداء إلى الحق ، فكيف يستقيم أن يكون السبيل إلى تأدية هـذه الرسالة هو اطراح المثل الفاضلة والانحراف عن القيم الخلقية الرفيعة ؟ .

وليس أدل على ذلك من أن انتشار الثقافة الصحيحة لا يصحبه أزمات اجتماعية ، فإذا نشأت هذه الأزمات برغم النهوض العلمى والثقافى كانت تلك ظاهرة على قلق العصر ودليلا على أن العلم لم يقم بدوره فى تأمين البشرية فى مواجهة الأخطار التى تتعرض لها .

وقد نبعت الأسس والشروط التى وضعها الإسلام صونا لشرف الرسالة التى يضطلع بها العلم والثقافة ، من المبادىء الإسلامية العليا التى جاءت بها شريعته الغراء ، والتى استقرت أصولها فى ظل الدولة الإسلامية الأولى ، ثم آتت ثمارها فى الدولتين العباسية والأندلسية فأبدعت للعالم حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال ، ودفعت صلالات من الأحياء فى طريق التقدم وأكتشفت آفاقا جديدة من طبيعة الكون والحياة .

ويجمل بنا قبل أن نتناول تلك القيم والتقاليد التى أرساها الإسلام فى رسالته الثقافية أن نقدم ملامح من مبادىء الإسلام الخالدة التى شكلت التربة الصالحة لهذه القيم والجو الذى لتلك التقاليد .

فقد كانت تلك المبادىء بمثابة الأسس والقواعد التى التزم بها المسلمون الأوائل فى طلب العلم والضمانات التى استوحوها من عقيدتهم السمحة للنهوض بالثقافة فى البيئة الإسلامية وفقا لروح الإسلام وشريعته .

ومن هذه القواعد والضمانات التى تقوم عليها الثقافة ما تلتزم به السلطة الحاكمة أو الدولة ، ومنها ما يلتزم به الأفراد أو الشعب .

المبادىء الإسلامية
فى المجال العلمى والثقافى

إن العلم حق الفرد وواجب على الدولة ، وينبثق هذا المبدأ من القانون الدستورى الإسلامى الذى يلزم الحاكم بالعمل على إشباع الحاجات المادية والمعنوية المشروعة للرعية ، فلا يحجم عن كفالة هذه الحقوق الدستورية للجماعة - ومنها حق العلم والثقافة - غير الحاكم الظالم ولا طاعة لمخلوق فى معصية .

والإسلام شريعة الحق والعدل ، ومن العدل أن تتحقق المساواة بين الناس فيما تخلعه عليهم الدولة من حقوق ، فلا تمييز فى حق التعلم والتزود بالثقافة بين فرد وآخر ، وإنما الفرصة متاحة للجميع على قدم التكافؤ

والمساواة ، ولا تفرقة بين فئة وغيرها لأنه لا طبقية ولا عنصرية ولا امتياز لجماعة دون غيرها فى الإسلام ، بل الأكرم والأفضل عند الله هو الأتقى .

والضمان الحقيقى لعدم استغلال هذا الحق أو التمتع بتلك المساواة هو الإخاء والتعاون ، ففى ظل التكافل والمشاركة تعم وسائل العلم والمعرفة وتؤتى ثمارها لصالح الأفراد والجماعات ، ومن ثم دعا الإسلام إلى اشتراكية الثقافة وخطط لهذا الاتجاه فى كافة الميادين كيلا يصبح العلم وقفاً على أفراد معينين ، وسداً لمنافذ احتكار العلم والانتفاع به فى تحقيق مغانم ذاتيـــة أو أطماع طائفية .

تلك هى المبادىء الإسلامية الإساسية التى تلتزم بها الدولة فى المجال الثقافى ، وتحرص على كفالتها وحمايتها ودعمها فى المجتمع إيماناً برسالتها وتحملا لمسئوليتها غير أنها فى سبيل إرساء هذه المبادىء ، وتأكيدها لا تعمد إلى القهر والعسف ، ولا تقيم من نفسها وصية أبدية على الناس فى جميع شئونهم الفكرية ، وإنما تكتفى بالإشراف الأعلى ضماناً لهذه المبادىء ، فلا تتدخل إلا حيثما تدعو الحاجة إلى الذود عن هذا البناء فى مواجهة خطر طارىء أو شر يطل برأسه ولا طاقة للرعية بدفعه ومكافحته ، ومن ثم حرصت الدولة الإسلامية فى ضوء تعاليم دينها الحنيف على أن تبث فى نفوس رعيتها الإيمان بقيمة الثقافة فى النهوض بالفرد والمجتمع من طريق الإقناع بالحسنى ، حتى تستقر فى نفوسها تلك المفاهيم وتتبلور قيما وتقاليد يستطيع بفضلها الشعب أن يشارك دولته فى تحقيق أهدافها العلمية والثقافية منبثقاً من إرادته الحرة ودوافعه الوجدانية .

القيم والتقاليد الإسلامية فى الثقافة

وقامت فلسفة الإسلام فى هذا المجال على أساس أن الفرد من أجل المجموع ، والمجموع من أجل الفرد ، فلا ارتفاع لأحدهما على حساب الآخر ، فالمجتمع بناء هرمى متماسك فى قمته أجهزة الدولة الموجهة ، وفى قاعدته الأفراد العاملون ، ولا قيام للقمة بغير قاعدة كما أنه لا قاعدة بغير قمة .

وتطبيقاً لهذه الفلسفة جعل الإسلام من التربية الاستقلالية التى تهدف إلى بث الثقه بالنفس والاعتماد عليها منهاجا لتقويم الأفراد حتى ينشئوا كراما أعزة فى ظل مجتمع حر ، يفتدونه بأرواحهم إيماناً منهم بعظمة الحرية التى تشبعت بها نفوسهم فجرت فيها مجرى الدماء فى العروق .

الاسلام دين العلم والعمل :

وهكذا دعا الإسلام إلى التوسل فى طلب الثقافة بالقيم الأخلاقية المثلى فهى الدرع الواقى لمبادئه والباعث على تحقيق غاياته . وتتسق هذه الوجهه التى أنتهجتها الدعوة الثقافية مع روح الدعوة الإسلاميه وطبيعتها ذلك أن الإسلام يتفرد دون سائر الديانات السماوية بهذا المنهاج البين الرشيد الذى رسمه لعلاج ما يعانيه المجتمع من مشكلات علاجا موضوعيا جذريا يقوم على العلم والعمل فلم يكن اهتمام الإسلام بوضع النظرية أقل منه فى ملاحظتها فى مرحلة التطبيق ، إذ كان من توجيهات الرسول التى أتبعها الخلفاء والأئمة من بعده أن يتسلح المؤمن بالوعى الذى يتاح له من التأمل فى عالم فى عالم النفس والكون ، والخبرة التى يحصلها من ممارسته للحياة وما يخوضه من علاقات مع الآخرين .

ومن هنا كان الإسلام ديناً ودولة ، عبادة ومعاملة ، وكان العلم - وهو من دعائم هذا الدين وأركان هذه الدولة - يجمع بين النظرية والتطبيق فلا غرو أن يحدد الإسلام الملامح الرئيسية للمفهوم العلمى والثقافى حتى لا ينحرف به مريدوه عن مقاصده الجليلة ، وأن يوجه طلاب الثقافة وقادتها إلى الطريق الصحيح الذى يصل بهم إلى غاياتهم فى إطار الروح الإسلامية ، وأن يبين لهم المناقب النبيلة التى ينبغى أن يتحلوا بها ، وفى وصف العلم الحق الذى يحث الرسول على انتهاجه ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إنه الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، وبه يعرف الحلال من الحرام وهو إمام العمل والعمل تابعه » ؟

بلاغة إياس المبكرة

دخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام : فقدم خصما له إلى قاض لعبد الملك ، وكان خصمه شيخاً كبيراً ، فقال له القاضى : أتقدم شيخاً كبيراً ؟ فقال له إياس : الحق أكبر منه . قال له : اسكت . قال : فمن ينطق بحجتى ؟ قال : ما أظنك تقول حقاً حتى تقوم . قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فقام القاضى فدخل على عبد الملك فأخبره بالخبر . فقال : اقض حاجته الساعة ، وأخرجه من الشام حتى لا يفسد على الناس .